ألكنائس الكاثوليكيّة الشّرقيّة في الشّرق الأوسط
بعد خمسين سنة من صدور وثيقة "الكنائس الشّرقيّة"
ملاحظات – تحليل – تقييم
كنيسة أنطاكية وآمالها في استعادة الوحدة رغم المتاعب والخلافات

حديث أجراه المطران نيقولاوس سمرا
راعي أبرشيّة نيوتن للروم الملكيّين الكاثوليك
في كليّة "سانت مايكل" – جامعة تورونتو
بتاريخ 18 تشرين الأوّل/أكتوبر 2014

مقدّمة[1]

قبل أن ستعرض وضع الكنائس الشرقيّة في الشّرق الأوسط، بعد مرور خمسين سنة على الوثيقة التي أصدرها المجمع الفاتيكانيّ المسكونيّ الثّاني بشأن "الكنائس الشّرقيّة"، لا بدّ من مقدّمة تتناول ما كانت عليه تلك الكنائس قبل انعقاد المجمع بزمن طويل. وهذا يعني الرّجوع إلى العصور الأولى للكنيسة، حيث تمّ التّعبير عن الإيمان المسيحيّ بالكلام البشريّ، لا سيّما في المجامع المسكونيّة السّبعة، والمجامع المحليّة الكثيرة. فقد شهدَت تلك العصور مناقشات لاهوتيّة هامّة، إضافةً إلى ما اعتدنا أن نسمّيه "هرطقات"، أي بِدَعًا.

وسأتناول في حديثي بنوع خاص كنيسة أنطاكية، التي كانت مدينة عظمى في الامبراطوريّة الرّومانيّة الشّرقيّة، تبسط سلطتها على بقعة واسعة تُعرَف باسم سورية الكبرى، وتشمل ما هو حاليًّا سورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق وإسرائيل المعاصرة، مع أجزاء من جنوب تركيا. وكانت صلاحيّة بطريركيّة أنطاكية تشمل هذه المنطقة الواسعة كلّها. أمّا إنشاء بطريركيّة القدس فكان فخريًّا ومحصورًا في رقعة محدودة جدًّا.

ومع أنّ اليونانيّة كانت اللغة الأكثر شيوعًا في الإمبراطوريّة الرّومانية كلّها، إلّا أنّ اللغات المحليّة بقيت مستعملة، لا سيّما في الأرياف البعيدة عن المدن الكثيفة السكّان. فكانت الآراميّة والسّريانيّة شائعتَين في القرى المسيحيّة مع كثير من اللّهجات المتشعّبة منهما. أمّا العربيّة فكانت مجهولة في تلك البقعة، ولم تنتشر إلّا بعد الفتح الإسلاميّ بقرون، كما انّ استعمالها لم يغلب بين عامّة الشّعب، لا سيّما المسيحيّين، إلّا بعد حلول القرن السّابع عشر.

لست بحاجة إلى الاستشهاد بقرارات المجامع وتواريخها لأقول إنّ كنيسة أنطاكية سريعًا ما تنوّعَت، إذ تفرّع من جذعها الأصليّ عدد من الكنائس الجديدة. وكانت ليتورجيّة القدّيس الرّسول يعقوب الإطار الأساسيّ للعبادة في كنيسة أنطاكية، فتفرّع منها هي أيضًا عدد من اللّيتورجيّات الأخرى. وكانت الكنيسة الشرقيّة السّريانيّة تستعمل أنافورةً أقدم، منسوبة إلى عدّاي وماري.

وتتّسم بأنها لا تنطوي على رواية لرسم سرّ القربان المقدّس. وكان قسم كبير من كنيسة أنطاكية يتبع التّعاليم النّسطوريّة، عِلمًا أننا لم نعُد نستعمل هذه التّسمية في عصرنا.
وكانت الكنسية السّوريّة الشّرقيّة منتشرة من العراق الحاليّ إلى امبراطوريّة بلاد فارس (إيران)، وتمتدّ شرقًا حتى التّخوم الجنوبيّة للصّين والهند. كما كانت كنيسة نشطة في نشر الإنجيل. غير أنّها انطفأت أو كادت تنطفئ في كثير من المناطق، بينما نمَت وتطوّرت في مناطق أخرى لا سيّما الهند. أمّا الكنيسة السّوريّة الغربيّة فتحوّلت إلى الكنيسة السّريانيّة التي تفرّعَت هي أيضًا إلى عدد من الكنائس نتيجةً للجدَل اللّاهوتيّ. فتبع بعضها البدعة النّسطوريّة. وعقب انعقاد المجمع الخلقيدونيّ في العام 451 انقسمت الكنيسة السّريانيّة بدورها إلى مؤيّد للمجمع ومعارض له. فأضفى المعارضون للمجمع لقب "الملكيّين" على المؤيّدين، وذلك نسبةً إلى الكلمة الأراميّة "مَلكو" (الملك) أي الإمبراطور البيزنطيّ الذي أيّد تعليم المجمع أنّ السيّد المسيح إله حقّ وإنسان حقّ. وكان تلقيبهم بالملكيّين في ذلك العهد ازدراءً لهم. أمّا معارضو المجمع فكان لهم مفهومهم الخاص لوحدة شخص السيّد المسيح كإله وإنسان. ولا بدّ لي هنا من الإشارة إلى أنّ الجانبين لم يدركا إلّا بعد مرور نحو 1900 سنة، أنّ خلافهما لم يكن لاهوتيًّا، بل ناجمًا عن اختلافهم في معنى الألفاظ.

وحتى الملكيّون التّابعون للكنيسة الخلقيدونيّة انقسموا هم أيضًا إلى ما يُعرَف حاليًّا بالموارنة والملكيّين. لم يكن الموارنة في البدء خلقيدونيّين بالمعنى الصِّرف، بل يؤكّد بعض المؤرّخين (من غير الموارنة طبعًا وبوجه عام) أنهم كانوا في حقبة من الزّمن يقولون بالإرادة الواحدة في المسيح – وباليونانيّة "مونوثيليت" – وهي صفة غير محمودة في عصرنا. لكنْ تلافيًا لإثارة الجدَل في هذا المضمار، أكتفي بالإشارة إلى نشأة كنيستين أُخريَين تتميّز إحداهما عن الأخرى: كنيسة أنطاكية التي انتشرت في ربوع آسيا الصّغرى وكنيسة القسطنطينيّة، عاصمة الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وقد نالت حياتها اللّيترجيّة من الأولى. وكانت هذه الكنيسة أكثر تأثّرًا بالحضارة الهلّينيّة وطُرُقها في التّعبير. ومما يذكَر أنّ يوحنّا الذهبيّ الفم كان بطريركًا لأنطاكية، قبل انتخابه بطريركًا للقسطنطينيّة. ثم تطوّرت هذه الكنيسة البيزنطيّة واستمدّت من فلسطين كثيرًا من الخدمات اللّيتورجيّة دون أيّ تعديل.

وعقب الفتوحات الاسلاميّة في القرن السّابع، وما تبعها من حملات صليبيّة كانت تهدف في الأساس إلى درء الإسلام، ظهرت انقسامات جديدة. فقد أبعد الصليبيّون قادة الكنيسة الانطاكيّة الشرعيّين، بطريركًا وأساقفة، وأحلّوا محلّهم قادة من اللّاتين. فهرب البطريرك الأنطاكيّ الخلقيدونيّ والتجأ إلى القسطنطينيّة، حيث تأثّرت كنيسته بالحضارة الهلّينيّة. وهكذا بعد انقضاء بضعة قرون فقَدت تقاليدها اللّيتورجيّة السّريانيّة واعتنقت تقاليد كنيسة القسطنطينيّة التي تُسمَّى أيضًا الكنيسة البيزنطيّة.

وإن نحن قفزنا بضعة قرون إلى الأمام رأينا اللّاتين التّابعين لكنيسة رومة يبعثون بالمُرسلين إلى الشّرق الأوسط ابتداءً من مطلع القرن السّابع عشر. فلو كان الهدف ردّ المسلمين إلى الدّين المسيحيّ لكانت المحاولة باطلة، لأن الإسلام يحرّم الارتداد ويحمي ذاته إذ يهدّد بقتل كلّ مسلم يرتدّ، بل يفكّر في الارتداد عن دينه.
الحقيقة إذًا هي أنّهم بذلوا جهودًا جبّارة لتبشير الأرثوذكسيّين واقتناصهم، وهذا أدّى إلى نشوء كنائس شرقيّة "متّحدة" مع رومة، أُطلِق عليها لقب "Uniates" الاستهزائيّ أي "المتكسّبين" الذين اتّحدوا مع رومة لمصلحة ماديّة. كما أدّى أيضًا إلى إنشاء كنائس لاتينيّة لها معابدها الخاصّة. ولمّا كانت هذه الكنائس الجديدة تعتمد على المصادر الغربيّة في تمويلها، فقد "اكتسبت" بهذه الأساليب التبشيريّة الرّخيصة، كثيرًا من المرتدّين.
يمكننا الآن أن نختصر هذه المقدّمة الطويلة بقولنا انّ كنيسة أنطاكية تطوّرت فأدّت إلى نشوء الفئات التّالية وهي:
أولًا : السّوريّون الغربيّون وهم:
السّريان الأرثوذكس والكاثوليك
الموارنة وكلّهم كاثوليك
الرّوم الكاثوليك الملكيّون، والرّوم الأرثوذكس، ويُدعَون في الغرب الأرثوذكس الأنطاكيّين.
ثانيًا: السّوريّون الشرقيّون وهم:
الكلدان الكاثوليك وكنيسة المشرق (الفرع غير الكاثوليكيّ) وهي لا تتّخذ لقب "أرثوذكسيّة" بل تسمّي ذاتها كنيسة المشرق الرّسوليّة الكاثوليكيّة.
السّوريّون الملابار الكاثوليك والأرثوذكس في الهند، وهم يتبعون التّقليد الكلدانيّ.
السّوريّون الملانكار الكاثوليك والأرثوذكس في الهند، وهم يتبعون التّقليد السّريانيّ.
ويمكن أن نضيف إلى كنيسة أنطاكية الفريدة التي انقسمت إلى عدّة كنائس، الكنيسة الأرمنيّة، وهي كنيسة قوميّة، أقدم من كنيسة الأمبراطوريّة البيزنطيّة، عِلمًا أن التّقليد الأرمنيّ اكتسب عناصر سريانيّة وبيزنطيّة بينما كان ينتشر في ربوع آسيا الصّغرى. وينطوي على كنيستين:
الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة التي تُدعى أيضًا الكنيسة الأرمنيّة الرّسوليّة.
وهكذا يتبيّن أن كنيسة أنطاكية أدّت إلى نشوء ستّ كنائس أرثوذكسيّة وسبع كنائس كاثوليكيّة، فضلًا عن الكنائس اللّاتينيّة التّبشيريّة.

نقوم الآن بقفزة جديدة إلى الإمبراطوريّة العثمانيّة التي حكمت الشّرق الأوسط، من البلقان إلى اليونان، طوال 400 عام، وكانت تعتمد مبدأ فرِّقْ تَسُدْ لتحكم هذه المنطقة المترامية الأطراف، فجعلت من كلّ كنيسة طائفة أو مِلّة (بالتّركيّة millet). وكانت تَعتبر البطريرك أو الأسقف لكلّ "ملّة" رئيسًا مدنيًّا يحكم الكنيسة المحليّة التّابعة له. ولم يكن العثمانيّون يتدخّلون إلّا ليجبوا الجزية

ويعاقبوا المسيحيّ المتّهَم بالقتل. كما كانوا يفرضون جزية باهظة على المسيحيّين. زد على ذلك أنّ المسيحيّين كانوا يدفعون مبالغ إضافيّة لقاء اعتراف الباب العالي بقادتهم من بطاركة وأساقفة. لذا كان البطاركة والأساقفة يُنتخَبون نظرًا لكفاءاتهم المدنيّة، أكثر من كفاءاتهم الرّوحيّة. وإبّان الحُكم العثمانيّ، ضحّى كثير من البطاركة والأساقفة والمدنيّين المسيحيّين بحياتهم في سبيل إيمانهم.

ثمّ اندلعت الحرب الكبرى، أي الحرب العالمية الأولى، فأطاحت بالحكم العثمانيّ الذي كان قد بدأ يتداعى من قبل، أي منذ تدخُّل الدّول الغربيّة في الشّرق الأوسط. لكن المسيحيّين كانوا قد تلقّنوا من الأتراك أساليب التآمر والمخاتلة. كما تعلّموا من حكّامهم العثمانيّين الفاسدين، اللّجوء إلى الغشّ والخداع لصيانة حياتهم.

تقييم تاريخيّ للانقسام

وهذا يفضي بنا إلى ما نعانيه اليوم من مشاكل خطيرة. فكنيسة أنطاكية منقسمة، ومن الواضح أنّ فيها كثيرًا من الغيرة والتّنافس. فقد اكتسبت كلّ كنيسة شخصيّةً قويّة وصارت كلّ كنيسة تعتبر ذاتها الوريثة الشّرعيّة الوحيدة للكرسي الأنطاكيّ. كما أنّ ثلاثة بطاركة كاثوليك واثنين أرثوذكس يحملون نفس اللّقب: بطريرك أنطاكية وسائر المشرق. زد على ذلك أنّ هنالك عددًا من الرَّهبنات اللّاتينيّة كاليسوعيّين والفرنسيسكان والدومينيكان الخ. وأمست كلّ كنيسة منهمكة في الصّراع للاحتفاظ بأتباعها، لا سيّما وانّ اللّاتين أخذوا يبنون كنائس خاصّة بهم ومنازل للمؤمنين الذين يسوغ القول فيهم إنّ المبشّرين االلّاتين اشتروهم نوعًا ما لينضمّوا إلى الكنيسة اللّاتينيّة. والمعروف أن أبناء الكنيسة اللّاتينيّة في القدس لا يزالون معروفين شعبيًّا باسم "لاتين الخبز" لأنهم انضمّوا إلى الطقس اللّاتينيّ كسبًا للعَيش والدّعم الماليّ. وبدلًا من أن يتعاون جميع المسيحيّين لبناء المدارس وتربية الأطفال، كانت كلّ كنيسة تحاول أن تبتني لنفسها مدارس خاصّة في المدن وفي الأرياف، على الرّغم من وجود كنائس ومدارس كثيرة. وعلاوة على هذا وذاك، لا بدّ من ذكر الطّوائف البروتستانتيّة التي تتلقّى هي أيضًا دعمًا ماليًّا من الغرب، لا سيما من الولايات المتّحدة. هنا أيضًا لعب المال والسّكَن والغذاء والدّعم الاقتصاديّ دورًا هامًّا في إبعاد المسيحيّين الشّرقيّين عن جذورهم وتقاليدهم الخاصّة. ولم يكن في يد المؤمنين الأرثوذكس حيلة لمعالجة الوضع، عندما أدّت الخلافات إلى ابتعاد الكاثوليك الشّرقيّين عن كنيستهم الأمّ والوقوع تحت النّفوذ اللّاتينيّ.

خواطر في وثيقة "الكنائس الشّرقيّة" الصّادرة عن المجمع الفاتيكاني الثّاني

تعترف الوثيقة التي نحن في صددها بجميع الكنائس الخاصّة. فهي تتناول "طقوس الكنيسة الشّرقيّة"، لا الطّقوس الشّرقيّة للكنيسة الكاثوليكيّة، كما لو كانت الكنيسة اللّاتينية وحدها كاثوليكيّة.

فالكنائس جميعها متساوية في الكرامة، ليس فيها كنيسة تسمو على غيرها، بما في ذلك الكنيسة اللّاتينيّة[2]. غير أنّ الاعتراف بهذا الواقع استغرق وقتًا طويلًا لينضج، فجاء بعد مئات السّنين من الظّلم وخسارة عدد كبير من المؤمنين.

"إنّ تنسيق الجهود، ضَمانًا للوحدة في العمل، وسبيلًا إلى دعم المشاريع المشتركة للمحافظة على الحياة المنتظمة بفعّالية أوفر"، استهلك سنوات طويلة ولم يُكلّل بالنّجاح حتّى الآن[3]. كما يطلب المجمع الفاتيكانيّ الثّاني إلى الكنائس الكاثوليكيّة الشرقيّة أن تحكم ذاتها بذاتها. غير أنّ التّنفيذ لا يزال مُرجَأً ومعرقَلًا بسبب تدخّل رومة. وإليكم بعض المصاعب النّاجمة عن هذا التدخّل: عندما يكون هنالك رئيس فوق الرئيس، أعني البابا فوق البطريرك والسّينودس، ولم يتمّ حلّ مشكلةٍ ما على وجهٍ يُرضي المتنازعين، فإنّ هؤلاء يرفعون القضية إلى الرئيس "الأعلى". وهذا ما حصل فعلًا في الأردن عندما اختلف بعض الكهنة مع رئيس أساقفتهم الملكيّ ولم يقبلوا بالتّسوية التي اقترحها السّينودس. فرفعوا الدّعوى إلى رومة. ورومة عيّنت أسقفًا لا تينيًّا مساعدًا لرئيس الأساقفة الملكيّ، ذا صلاحيّة حتّى على رئيس الأساقفة ذاته.

كما تدعو وثيقة المجمع الفاتيكانيّ الثّاني الكنائس الكاثوليكيّة الشّرقيّة إلى "أن تحافظ كلٌّ منها على طقسها اللّيترجيّ المشروع ومناهجها في الحياة". غير أنّ ذلك لم يتمّ حتّى الآن نظرًا للّيتنة المُفرطة التي وقعت فيها هذه الكنائس لاهوتيًّا وليتورجيًّا. المسألة هي إذًا أكثر من أن نُلبس الكنائس الكاثوليكيّة الشّرقية الزيّ الأرثوذكسيّ ونعتبرَها موالية لتقاليدها الخاصّة.

لا يحقّ لي الكلام باسم جميع الكنائس الكاثوليكيّة الشّرقيّة، بل فقط باسم كنيستي الملكيّة: عقب المجمع الفاتيكانيّ الثّاني استأنف سينودسنا عام 1968 عادةً أصيلة، هي منح القربان المقدّس للأطفال الذين نالوا سرَّي المعموديّة والميرون. ومع ذلك بقيت كنائسنا، في طول الولاية البطريركيّة وعرضها، تقيم احتفالات المناولة الأولى للأطفال عند بلوغهم السّابعة من العمر. صحيح أنهم يدعونها "مناولة احتفاليّة". لكن ينبغي ألّا ننخدع بظاهر الألفاظ: إسألوا المؤمنين العلمانيّين ما الذي يحتفلون به!

فلكي نستعيد هويّتنا التامّة، قامت أبرشيّتنا بإعادة الأمور إلى نصابها عام 1970 عندما تسلّم رئيس الأساقفة يوسف الطّويل، زمام أمور الأبرشيّة. فقد بذلنا جهودًا حثيثة لإعادة تثقيف المؤمنين في هذا الصّدد. ولكن بعد وفاته استأنف بعض الكهنة في بعض الرّعايا المناولةَ الاحتفاليّة. لذا اضطُرِرتُ منذ ثلاث سنوات، بعد ما أصبحت راعيًا للأبرشيّة، أن أُصدر رسالة رعويّة للعودة إلى تقاليدنا الأصيلة وكانت رسالتي تتّسم بلهجة أشدّ من ذي قبل[4].

لنا مثَل آخر في عيد الجسد الإلهيّ. إنّه عيد لاتينيٌّ صِرف. ومع ذلك فقد اعتنقته الكنيسة الملكيّة بعد فترة وجيزة من استعادة شركتها مع رومة في العام 1724. ناقشَ سينودسنا هذا الموضوع عقب انتهاء المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، وأجمع الأساقفة على أن الاحتفال بهذا العيد لَيْتنة. ومع ذلك قرّروا أن يتركوه في التّقويم الكنسيّ، وذلك كعيد من الدّرجة الأولى له تهيئة وخدمة ووداع. وكانت حجّتهم ذاتها متأثّرة باللّيتنة. صحيح أنّ صلوات العيد تحمل الطّابع البيزنطيّ، لكن المفهوم الاجتماعيّ للعيد في بعض الأبرشيّات كان ينطوي على طواف دينيّ، ترافقه مهرجانات الأكل والشّرب والرّقص في الشوارع، على غرار ما يجري في الكرنفالات[5].

هذا ولا نزال على حوار مع رومة بشأن بعض المسائل الأخرى، كتدخّلها في انتخاب الأساقفة، سواء كان ذلك داخل الولاية البطريركيّة التّقليديّة أم خارج تلك الولاية التي يبدو أنّ رومة تعتبرها مطابقة لحدود الامبراطوريّة العثمانيّة.

وفي العام 1995 أصدرت إدارة الكنائس الشرقيّة في رومة وثيقة عنوانها "تعليمات بشأن تطبيق المراسم اللّيتورجيّة الواردة في مجموعة قوانين الكنائس الشّرقيّة"[6]. لن أدخل في تفاصيل تلك المراسم، بل أكتفي بالقول إنّه لا بدّ من مواصلة الجهود للعودة إلى التّقاليد العريقة المشروعة للكنائس الشّرقيّة. ومع ذلك تبقى هذه الوثيقة من أفضل ما أصدرته رومة في هذا الشّأن. ولكن حتّى الآن، إنّ الكنيسة الوحيدة التي تُناول القربان المقدّس للأطفال عقب المعموديّة والميرون هي الكنيسة الملكيّة. ويبدو أنّ سينودسات الكنائس الشّرقيّة الكاثوليكيّة الأخرى لم تحمّل نفسها حتّى مشقّةَ قراءة هذه الوثيقة، أو إن كانت قرأتها فقد تجاهلتها ولا تزال تمنع الأطفال من المشاركة في مائدة الربّ. ذلك مثَل عن المراسم والتقاليد الكثيرة التي ينبغي علينا أن نستعيدها. لقد ناشدتُ سينودسنا مرارًا وتكرارًا بأن يناقش هذه الوثيقة، لكنه حتّى الآن لم يفعل. فأكتفي بهذا القَدْر من التّعليق.

إنّ مسألة تاريخ الاحتفال بعيد الفصح لا تزال واحدة من تلك القضايا المعلّقة. كلّنا يعلم أنّ المسلمين يسخرون منّا لأنّنا نحتفل بفصحَين. فهم يعتبرون ذلك فضيحة . كما أنهم ينظرون إلى انقسامنا، وغالبًا ما يَغفَلون عن انقساماتهم. ومع ذلك، إنها في الواقع فضيحة، لأنّنا لم نستطع الاتّفاق على تحديد تاريخ مشترك لعيد الفصح رغم مرور ذلك الزمن الطويل. جاء في الوثيقة الصّادرة عن المجمع الفاتيكانيّ الثّاني أنّ على "البطاركة أو الرّؤساء المسؤولين في منطقة معيّنة أن يتّفقوا على الاحتفال بعيد الفصح في يوم أحدٍ واحد" لكنّها تضيف "شريطةَ أن يتمّ الاتّفاق بالإجماع وبالتشاور مع الأطراف المعنيّة"[7].

وقد تمّ هذا الاتّفاق في مصر والأردن حيث تحتفل جميع الكنائس بعيد الفصح مع الأرثوذكس، لكنّ معظم الفضل في ذلك يعود إلى السّلطات المدنيّة. أمّا في الأراضي المقدّسة، فيحتفل الملكيّون بالتّاريخَين وفقًا لأغلبيّة المؤمنين. إلّا أنّ ذلك قد يتغيّر في العام القادم 2015 حيث يأمل المسيحيّون الكاثوليك أن يحتفلوا بالفصح الأرثوذكسيّ.

وقد برزت مسألة الاحتفال بعيد الفصح في يوم واحد عندما زار البابا القدّيس يوحنّا بولس الثّاني سورية في العام 2000، إذْ جرت محاولة لاحتفال جميع الكنائس بالعيد مع الأرثوذكس. فقد تمّ الاتّفاق في البداية، لكنّ الأرمن الكاثوليك ما عتّموا أن انسحبوا من الاتّفاق، لأنّ إخوتهم الأرمن الأرثوذكس وافقوا على الاحتفال بالعيد دوليًّا وفقًا للتّقويم الغربيّ. كما تبعهم في الانسحاب السّريان والموارنة لأنّ إخوتهم في لبنان لن يوافقوا. أمّا البطريرك الملكيّ فبقي ملتزمًا بالاحتفال مع الأرثوذكس، غير أنّ رومة أوصت (وربّما فرضت) أن يكون هنالك إجماع على ذلك بين كنائس البلد الواحد. وعليه لا نزال مضحكة للمسلمين، لأننا نصلب المسيح ونُقيمه مرّتين.

وتتناول وثيقة الكنائس الشّرقيّة العلاقات مع الكنائس الأرثوذكسيّة، فتقول "إنّ للكنائس الشّرقيّة التي هي على الشّركة مع الكرسيّ الرّسوليّ الرّومانيّ، شأنًا خاصًّا في أمر تعزيز الوحدة بين المسيحيّين جميعًا[8]... وذلك، قبل كلّ شيء، بالصّلاة والسّيرة المثاليّة والأمانة الخاصّة لتقاليدهم الشّرقيّة العريقة، والمزيد من التّعارف والتعاون، والتّقدير الأخويّ للأشياء والأشخاص"[9].

كذلك تتيح الوثيقة للأرثوذكس أن يقبلوا أسرار التّوبة والقربان المقدّس ومسحة المرضى من كاهن كاثوليكيّ إذا طلبوا ذلك من تلقاء أنفسهم، كما تسمح للمؤمن الكاثوليكيّ أن يقبل تلك الأسرار عينها من كاهن أرثوذكسيّ، عند الضّرورة، إن لم يكن هنالك أيّ كاهن كاثوليكيّ، شريطة أن يكون الكاهن الأرثوذكسيّ راضيًا.[10]

أذكر أنّ كاهنًا سريانيًّا أرثوذكسيًّا زائرًا حضر مؤخّرًا رسامة كاهن ملكيّ بوضع يدي في بلاسِنْتيا بكاليفرنيا، وتقدّم مع كهنتي وشمامستي لأناوله القربان المقدس ففعلت. وقد جرى حدَثٌ مماثل منذ بضع سنوات عندما كان بطريركنا يحتفل بالقدّاس الإلهيّ في لوس أنجليس. فتقدّم المطران السّريانيّ الأرثوذكسيّ إلى مائدة الربّ وتناول القربان المقدّس مع البطريرك الملكيّ.

ملاحظات مسكونيّة

قام باباوان بزيارة سورية ولبنان في العقدَين الماضيين: القدّيس يوحنّا بولس الثّاني وبنديكتوس السادس عشر. وكلاهما طلب تعاونًا أفضل بين الكنائس، كاثوليكيّةً كانت أم أرثوذكسيّة، شهادةً لإيمان مسيحيّ واحد، وذلك بالصّلاة والممارسة الفعليّة. كما تخطّى كلاهما الجماعة الكاثوليكيّة

واتّصلا بإخوتنا وأخواتنا في الإيمان من الجانب الأرثوذكسيّ. أجَل، ليست العلاقات الحاليّة بين الجانبين بلا شوائب، لكن يمكننا أن نصقلها ونحيا بموجبها في كنيسة متّحدة. كما حثّ الباباوان جميع المؤمنين الشرّقيّين، من كاثوليك وأرثوذكس، على النهوض برسالة مشتركة وإزالة الحواجز التي تفرّق بينهم.

وهنا لا يسعني إلّا أن أُشيد بتطوّر عظيم جرى خلال السّنوات العشر الماضية: ففي كلّ من حلب ودمشق قام الرّوم الملكيّون الكاثوليك والرّوم الأرثوذكس ببناء كنيسة مشتركة، وذلك بمباركة الرؤساء الرّوحيّين لكلا الطرفين. وتمّ تدشين الكنيستين بمشاركة البطريركَين الأرثوذكسيّ والكاثوليكيّ. كما تمّ الاتّفاق بين الطرفين على مواعيد الاحتفال بالقدّاس الإلهيّ. ومن المعروف أن الأرثوذكس والكاثوليك يتبادلون حضور القداس الإلهيّ في كثير من المناسبات ويتناولون أحيانًا القربان المقدّس في كنائس الطرف الآخر.

وهذا يحملني على الانتقال إلى النقطة الأخيرة من هذا الحديث، أعني الحوار المسكونيّ الذي تدعو إليه وثيقة المجمع الفاتيكانيّ الثّاني وسواها من الوثائق الأخرى الصّادرة عن الفاتيكان.
إنّ جميع القضايا التي ذكرتها، من خلافات ومنافسات ومحاولات اقتناص، نوقشت مطوّلًا وصراحةً في اجتماعات البطارقة والأساقفة الشرقيّين. ويصار حاليًّا إلى عقد اجتماعات بين رؤساء الكنائس الأرثوذكس والكاثوليك في الشّرق الأوسط[11].

لقد شجّع المجمع الفاتيكانيّ الثّاني الجماعات الكاثوليكية الشّرقيّة على التعاون الوثيق مع إخوتهم الأرثوذوكس لمعالجة القضايا المشتركة كالتّربية الدّينيّة والأنشطة الاجتماعيّة، لا سيّما النّهوض بالمشاريع الخيريّة. ففي الميدان التّربوي يتابع الطّلبة الكاثوليك دراساتهم العليا في جامعة البلمَند الأورثوذكسيّة، كما ينتسب الطّلبة الأورثوذكس إلى جامعة الرّوح القدس المارونيّة (الكسليك) بلبنان. ويشعر الجانبان منذ سنوات أنه لا غنى عن تعزيز التّعاون بينهما. وقد ازداد هذا التّعاون في أعقاب النّزاعات المسلّحة داخل الأقطار الإسلاميّة، بعدما توسّعت رقعة القتال حتّى انّه استهدَف وجودَ المسيحيّين في الأراضي التي ولدوا وترعرعوا فيها، لإبادتهم عن بكرة أبيهم.

وبعدما قامت بعض الكنائس الأرثوذكسيّة بإعادة الشّركة جزئيًّا مع رومة، نشأَت خلافات جديدة داخل الأسرة اللّيتورجيّة الواحدة. وأخذت الكنائس الكاثوليكيّة تدرك تدريجيًّا أنّ الاتّحاد الجزئيّ لا يأتي بالنّتائج المتوخّاة، وأنه لا بدّ من الشّروع في تعاون أفضل بين الجانبين الأرثوذكسيّ والكاثوليكيّ.

كما طرأ تغيّر كبير داخل الكنيسة الكاثوليكيّة الغربيّة وأضحت نتائجه تتسرّب تدريجيًّا إلى الكنائس الكاثوليكيّة الشّرقيّة. وأخذ اهتمام الفاتيكان بالشّرق يتزايد منذ أن تولّى البابا القدّيس يوحنّا الثّالث والعشرون رئاسة الكنيسة الكاثوليكيّة، وسار في خطاه الطّوباويّ بولس السّادس، والقدّيس يوحنّا بولس الثّاني وبنديكتوس السّادس عشر، وأخيرًا البابا فرنسيس. ولم تعُد الاجتماعات تقتصر على تبادل التّحيّات والعبارات الوديّة، بل تتعدّى ذلك إلى التعمّق في دراسة العلاقات بين الشّرق والغرب، وما كان بينهما من تفاهم واتّحاد طوال الألف الميلاديّ الأوّل. فأُجريَت دراسات جديدة أثبتت أن الخلاف الذي نشأ بينهما وأدّى إلى الانشقاق، كانت أسبابه سياسيّة أكثر منها لاهوتيّة. فاستأنفوا الحوار على هذا الأساس.
سأحصر الآن حديثي في كنيستي الملكيّة والمساعي التي تبذلها لاستعادة الوحدة مع كنيسة الرّوم الأورثوذكس المعروفين هنا في الولايات المتحدة بالأورثوذكس الأنطاكيّين.

اضطلعَت الكنيسة الملكيّة بدور هام في المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، كما أوضحَ ذلك في بدء هذه الندوة كلٌّ من الأب جان إريكسون والأب اليسوعيّ براين ديلي. وقد فعلَت ذلك على مستوى سينودسها الذي ساهم في إعداد وثائق المجمع، وكذلك عندما شاركَت في أعمال المجمع برئاسة بطريركها مكسيموس الصّائغ الرّابع[12]. وقامت دار صوفيّا للنشر، التّابعة لأبرشيّتي، بإصدار الأعمال التمهيديّة مع الخطابات والمذكّرات الصّادرة عن البطريرك الملكيّ، باللّغة الانكليزيّة، بعنوان "الكنيسة الملكيّة في المجمع"[13]. وقد أمضيتُ ساعات، بل أيّامًا طوالا في الإشراف على تحرير تلك التّرجمة الهامّة من الفرنسيّة إلى الانكليزيّة. فتمّ نشرها في هذا العام بمناسبة الذّكرى الخمسين للمجمع. ويمكن الحصول على هذا الكتاب من موقعنا الإلكتروني Melkite.org – منشورات صوفيّا ، لقاء 30 دولارًا.

"مبادرة الزغبيّ"

في العام 1975 ارتفع صوت نبويّ في السّينودس الملكيّ عندما تناول الكلام المطران الياس الزغبيّ رئيس اساقفة بعلبكّ – لبنان. وكان اسمه قد اشتهر في المجمع الفاتيكانيّ الثّاني عندما تكلّم عن مفهوم الطّلاق والزّواج الثّاني في الكنيسة الشّرقيّة. فقد اقترح المطران الزغبيّ على السّينودس مشروعًا لإعادة توحيد الكرسيّ الأنطاكيّ. وينصّ المشروع على أن يكون للكنيسة الملكيّة شركة ثنائيّة مع كلّ من رومة والكنيسة الأرثوذكسيّة. أي أن يكون للكنيسة الملكيّة شركة تامّة مع الكنيسة الأرثوذكسيّة، وأن تحتفظ بشركتها التّامّة مع رومة في الوقت ذاته.
في البدء، لم تتلقَّ أغلبيّة آباء السّينودس هذا المشروع بحماس، كما أنّ رومة كان لها اعتراضات عليه. ومع ذلك، فقد ألّف السّينودسان، الأرثوذكسيّ والكاثوليكيّ، لجنة مشتركة لدراسة المشروع. غير أنّ اندلاع الحرب المشؤومة في لبنان حال دون إحراز أي تقدّم في هذا المضمار.

وفي 1981 عاد المطران الياس الزغبيّ فنشر كتيّبًا آخر بالفرنسيّة عنوانه : "كلّنا منشقّون"، وتمّ نشره لاحقًا باللّغة الانكليزيّة[14] فرحّب به المتخصّصون في الحوار المسكونيّ. بيد أنّ رومة قطّبت وجهها لأنّ الكتاب يشكّك في مسألة العصمة التي أقرّها المجمع الفاتيكانيّ الأوّل. ذلك أنّ المطران الزغبيّ استشهد بموقف البابا بولس السّادس الذي عدّ مجمعَ ليون المجمعَ السّادس في قائمة المجامع الغربيّة العامّة. فاستند المطران الياس الزغبيّ إلى موقف البابا بولس السّادس ليستنتج منه قياسًا، أنّه يسوغ أيضًا اعتبار المجمع الفاتيكانيّ الثّاني مجمعا غربيًّا عامًّا، لا يُلزِم إلّا الغرب، على غرار مجمع ليون. وبعد مرور عشرين عامًا نضجت الأفكار المسكونيّة بفضل المجمع الفاتيكانيّ الثّاني ومواقف الباباوات، القدّيس يوحنّا الثّالث والعشرين وبولس السّادس، والقدّيس يوحنّا بولس الثّاني. وعليه، جدّد المطران الزغبيّ مشروعه الذي أصبح معروفًا دوليًّا باسم "مبادرة الزغبيّ" وذلك في كتيّب جديد من 30 صفحة، عنوانه: "أرثوذكسيّ متّحد؟ نعم! متكسّب؟ كلّا!" [15]
ويتضمّن الكتيّب شهادة إيمانٍ مقتضبة من بندَين:
1- إنّي أومن بكلّ ما تعلّمه الكنيسة الأرثوذكسيّة.
2- إنّي على شركة مع أسقف رومة ضمن الحدود التي كان يعترف بها آباء الكنيسة الشّرقيّون لأسقف رومة كالأوّل بين الأساقفة، وذلك في غضون الألف الأوّل الذي سبق الانشقاق.

وقد صرّح لاهوتيّ أرثوذكسيّ، هو المتروبوليت جورج خضر، مطران جبيل وجبل لبنان، أنّ هذه الشّهادة كافية. وهذا ما أقرّه أيضًا المتروبوليت الملكيّ كيرلّس سليم بستروس، رئيس أساقفة بيروت وجبيل، وعضو اللّجنة الأنطاكيّة للحوار الأرثوذكسيّ الكاثوليكيّ.
وفي العام 1995وقّعها خمسة وعشرون مطرانًا من سينودس الرّوم الملكيّين الكاثوليك الذي يضمّ سبعة وعشرين عضوًا. لكنّ ذلك التّوقيع لم يتمّ في جلسة رسميّة للسّينودس، بل في فترة استراحة، حيث قام كلّ مطران بمطالعة المشروع وتوقيعه على انفراد. ثمّ قام البطريرك مكسيموس الخامس حكيم بإرسال المشروع الموقَّع إلى زميله الأرثوذكسيّ، البطريرك إغناطيوس الرّابع، ففوجئ بما لقيه من تجاوب لدى البطريرك الأرثوذكسيّ الذي أحاله إلى سينودسه للدّراسة. وفي العام 1996 خصّص السّينودس الملكيّ بضعة أيّام للنّظر فيه ثمّ أقرّه بالإجماع، و أصدر تصريحًا يدعو إلى إنهاء الانقسام بين الكنيستَين[16]. فردّ السّينودس الأرثوذكسيّ بدراسة جديّة للمبادرة مؤكّدًا أنّ إعادة الوحدة الأنطاكيّة لا يمكن فصلها عن أعادة الشّركة بين رومة والعالم الأرثوذكسيّ.
لا يسَعني هنا سوى القول إنّ هذه الشّركة الثنائيّة كانت في الواقع قائمة في القرنين السّادس عشر و السّابع عشر، قبل أن تُعلِن إحدى الكنائس الأنطاكيّة شركتها التّامّة مع رومة في العام 1724. فقد كان المرسَلون اللّاتين يناولون القربان المقدّس للمؤمنين الأرثوذكسيّين، بموافقة رؤسائهم، بل كانوا أيضًا يعظون في الكنائس الأرثوذكسيّة. كما كان الأساقفة الأرثوذكس يعلنون شركتهم مع رومة دون أن يتعرّضوا إلى الجفاء من قِبَل زملائهم الباقين.

وقد رأى العاكفون على الحوار المسكونيّ في "مبادرة الزغبيّ" بابًا جديدًا ينفتح أمامهم. فأخذت المقالات المسكونيّة تتوالى في شتّى أنحاء العالم.

وفي العام 1997 تلقّى البطريرك الملكيّ وسينودسه رسالة من الكردينال راتسنغر الذي كان وقتئذ يشغل منصب رئيس مجمع الإيمان، والكردينال أشيل سيلفستريني، رئيس مجمع الكنائس الشّرقيّة، والكردينال إدوارد كاسّيدي رئيس مجلس الوحدة المسيحيّة، بشأن "مبادرة الزغبيّ". ولئن اعتبر كثير من المراقبين تلك الرّسالة بمثابة رفض للمبادرة، إلّا انّها كانت في الواقع تتضمّن خواطر لمواصلة ذلك الحوار "بتحفُّظ"[17].

وقد جاء البرهان على ذلك في 29 أيلول/سبتمبر 1998 عندما اجتمع البابا القدّيس يوحنّا بولس الثّاني مع البطاركة الكاثوليك الشّرقيّين فحثّهم ببلاغة على العمل لاستعادة الوحدة الكاملة مع الكنائس الأرثوذكسيّة. كما دعاهم إلى أن يبحثوا معه في أفضل الطّرق التي يجب أن ينهجها البابا في ممارسة مهامّ منصبه كخليفة لمار بطرس. وشجّعهم كما شجّع البطاركة ورجال اللّاهوت الأرثوذكس على أن ينهجوا حوارًا أخويًا صبورًا لإيجاد أفضل طريقة يمارس فيها البابا سلطته لخدمة الاتّحاد. وهذا يعني ضمنًا اعترافه بأنّ الباباويّة هي نوعًا ما سبب الخلاف. من هنا ضرورة النّقاش في كيفيّة فهم البابا لخدمته فهمًا صحيحًا[18].

لهذا الحوار أطواره فهو يتأرجح بين النّجاح في بعض الأمور والفشل في غيرها. وهذا ما نراه أيضًا في الحوار العالميّ بين الأرثوذكس والكاثوليك، وما سبقه من حوار بين الأرثوذكس والكاثوليك في أميركا الشماليّة.

لقد برز عائق جديد يعرقل الحوار الأنطاكيّ الرّامي إلى الوحدة. فالحرب الرّهيبة التي نشبت في سورية وما تبعها من محاولة لإبادة المسيحيّين في العراق، والحاجة إلى الاستقرار في سائر اقطار الشّرق الأوسط لا سيّما في مصر وفلسطين، والمنافسات الشّرسة القائمة في العالم الإسلاميّ بين السنّة والشّيعة، وقد تسرّبت إلى لبنان الذي كانت أغلبيته مسيحيّة قبل اندلاع كارثة الحرب، كلّ ذلك يهدّد الوجود المسيحيّ . هذه المشاكل كلّها تعتبر حافزاً قويًّا لتوحيد المسيرة والعمل المشترك بغية إنهاء الخلافات والانشقاقات المزمنة بين المسيحيّين شرقًا وغربًا.

لقد قام بطريرك الروم الأرثوذكس الجديد يوحنّا العاشر بزيارة البطريرك الملكيّ غريغوريوس الثّالث، وطلب أن يجتمع بسينودسنا عندما التأم في شهر حزيران/يونيه 2014. وممّا قاله: "علينا أن ننظر في مبادرة الزغبيّ من جديد." فكان اليوم التّاسع عشر من حزيران/يونيه 2014 يومًا مشهودًا، إذ وصل البطريرك يوحنّا العاشر إلى عين تراز في لبنان، يرافقه ثلاثة من أساقفته، كل واحد منهم برتبة متروبوليت، فضلًا عن سكرتيره، واجتمع مع أعضاء السّينودس الملكيّ في جوّ يسوده الإخاء و المحبّة. وألقى كلمة قيّمة أبرز فيها ضرورة الوحدة[19].

وكذلك عقد البطريرك غريغوريوس الثّالث وسائر البطاركة الشرقيّين الكاثوليك والأرثوذكس مؤتمرًا خاصًّا في شهر تمّوز/يوليه 2014 في جامعة البلمند، تناولوا فيه شؤون كنيسة أنطاكية. وبعد ذلك بأيّام قاموا بزيارة لسينودس الرّوم الأرثوذكس الذي رحّب بهم أجمل ترحيب[20].

ومن كبار العاكفين على الحوار المسكونيّ بطريرك أنطاكية الجديد للسّريان الأرثوذكس، مار إغناطيوس أفرام الثّاني، الذي يبلغ حاليًّا الثّامنة والأربعين من العمر. وكان قد شغل منصب رئيس أساقفة الأبرشيّة الشّرقيّة لكنيسته في الولايات المتّحدة الأميركيّة طوال ثماني عشرة سنة.
ويسعدني أن أضيف أنّنا، أنا وهو، عضوان في "الكنائس المسيحيّة المتّحدة"، وهي أكبر منظّمة مسكونيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة.

خاتمة:

مهما اعترض سبيلَنا من مدٍّ وجَزْر، وحلوٍ ومُرّ، ونجاحٍ وفشل، فإننا سنواصل مسيرتنا، في السرّاء و الضرّاء، سالكين طريقًا جديدة نحو وحدة الكنيسة الأنطاكيّة التي أصبحت منتشرة في جميع أنحاء العالم. ولئن كانت وثيقة الكنائس الشرقيّة الصّادرة عن المجمع الفاتيكانيّ الثّاني لا تخلو من ضعف، ألّا انّها عزّزت إيماننا بضرورة السّعي الحثيث إلى تحسين العلاقات بين الكنائس الشّرقيّة وتحقيق الوحدة المنشودة. فهل يسُوغ لنا أن نطالب بأكثر من ذلك؟

(تعريب الأب علم)

1 On this Introduction cf. Ignatios Dick, *Melkites: Greek Orthodox and Greek Catholics of the Patriarchates of Antioch, Alexandria and Jerusalem* (Nicholas Samra, trans. and ed.), West Roxbury MA: Sophia Press 2004, Part 1, pp.13-54.

2 *Orientalium Ecclesiarum* (*OE*), www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decree1..., No. 3.

3 *OE*, No. 4.

4 Bishop Nicholas Samra, *Pastoral Letter on Infant Communion and "First Communion" Ceremonies also called "Solemn Communion" or "Eucharistic Awareness*, *Sophia* – Journal of the Melkite Catholic Eparchy of Newton, Vol. 42, No. 2, (Spring 2012), pp. 6-7.

[5] Ignatios Dick, *Melkites Op.Cit*., p. 151.

[6] Congregation for the Eastern Churches, Libreria Editrice Vaticana, Vatican City 1995.

[7] *OE, Op.Cit*., No. 20.

[8] *OE, Ibid*., No. 24.

[9] *OE, Ibid*., # 24.

[10] *OE., Ibid*., No. 27.

[11] Elias Zoghby, (Nicholas Samra, trans.), "Triumph of Uniatism: The Congress of Catholic Patriarchs and Bishops of the Middle East," *Journal of Ecumenical Studies*, Vol. 37, No. 1 (Winter 2000), pp. 93-95.

On Maximos IV Sayegh, cf. Gerasimos T. Murphy, *Maximos IV at Vatican II, A Quest for Autonomy*, West Newton MA: Sophia Press 2011; cf. also Thomas E. Bird, *Patriarch Maximos IV Saygh* , (Men Who Make the Council Series, M. Novak ed.) Notre Dame IN: University of Notre Dame Press 1964; cf. also George D. Gallaro, *The Greek Melkite Church at the Council – The Melkites' Day at the Second Vatican Council*, unplublished English manuscript, Arabic translation publish in *al-Masarat*, Harissa Lebanon: Paulist Press.

[12] Sophia Press, West Roxbury MA 2014.

[13] Sophia Press, West Roxbury MA 2014.

[14] Sophia Press, West Roxbury MA 2014.

[15] Elias Zoghby, Jounieh Lebanon: Paulist Press 1995; English translation in *Eastern Churches Journal*, Vol. 2, No. 3 (Autumn 1995), Fairfax VA, pp. 11-14.

[16] Bishop Nicholas Samra (trans.), Press Release and Synodal Text in *Eastern Churches Journal*, Vol. 3, No. 2 (Summer 1996), Fairfax VA, pp. 5-12.

[17] French Original with Bishop Nicholas Samra.

[18] Cf. "We extend our arms in brotherhood – Holy Father encourages Catholic Patriarchs to help restore full unity with Orthodox Churches," *L'Osservatore Romano*, No. 40, 7 October 1998, Weekly Edition 7.

19 "Orthodox Patriarch John X Visits Melkite Synod," *Sophia* – Journal of the Melkite Catholic Eparchy of Newton, Vol. 44, No. 4 (Fall 2014), p. 11.

20 "Patriarch Gregorios Addresses Antiochian Unity Conference in Lebanon," *Sophia, Ibid*., p. 12.